سورة الأنعام

obeikandl.com

﴿ سورة الأنعام ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿١٢﴾ ﴾

اعلم أن الحق سبحانه غير ملزم بأن يكتب شيئاً على نفسه، وذلك لأن الحق سبحانه لا يُلْزَم بشئ قط من شؤون الحدث فافهم.

فهو سبحانه الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وإنما كان التزامه سبحانه تجاه نفسه فقط بشؤون الألوهية لا شؤون الحدث.

أقول: وإنما كتب الحق سبحانه الرحمة على نفسه لأجل استمرار العالم ولأجل دوام الحياة، فإن العالم بلا رحمته لا يستمر، ولذلك قال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، فإن من شئ إلا وهو داخل فى رحمته سبحانه الأزلية من الكافر حتى المؤمن.

فإن العالم محتاج إلى رحمته ولذلك كتبها على نفسه وأدخل فيها الكل.

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

ولماذا لم يقل سبحانه وله ما تحرك فى الليل والنهار؟، وذلك لكون الساكن أشمل من المتحرك وأعم، فإن ما خفى من مكونات الكون ما لم يكتشف منه أعظم مما ظهر فيه وتحرك.

ولو علم الأقدمون بظهور هذه المخترعات التى كانت ساكنة ومكنونة فى الأرض كالكهرباء والقطارات والمحمول والكمبيوتر

والصواريخ وسفن الفضاء لازداد إيمانهم بالله أكثر ولتحققوا من عظمة الله.

هذا ليعلم الناس أن اسمه الباطن أقوى من اسمه الظاهر فى الدنيا، فإنه سبحانه لم يظهر لنا من عظمته الباطنة فى هذه الدار سوى ذرة من بطون فافهم.

أما الآخرة ففيها يتجلى الباطن ببطونه، فيظهر ما لا تحتمله العقول، ولذلك عبر سيد الأولين والآخرين عن هذا المعنى بقوله ـــ لما وصف الجنة ـ فقال: ((**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**)).

واعلم أن اسمه الباطن هو الحاكم والمهيمن على اسمه الظاهر، وذلك لأن الظهور الإلهى لا يتحمله الحدث فى هذه الدار، ولذلك لم تكن بدار الظهور الإلهى.

ولهذا قال: ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾، أى من المعلومات الإلهية التى لم تظهر بعد إلى مجال الظهور فى عالم الشهادة.

أما السكون الإلهى وخفاؤه، فلا يظهر سوى فى الدار الآخرة على قدر عمل الحدث، وأعظم الحدث سيدنا محمد ﷺ فإنه يكتمل له الظهور الإلهى فى أوجه فافهم.

وأما اسمه الباطن المهيمن على البطون الإلهى، فإن له شأناً فى مقام الغيرة بحيث لا يظهر لمخلوق قط منه شئ كان من كان، بل هو من اختصاصات الألوهية الصرفة، فهناك لا اطلاع لحدث فافهم.

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

كان من نبأ هذه الآية أننى سألت مولانا عبد المجيد الشريف ﷺ

بمنزله بعابدين عن التصوف ؟.

فأجابنى بقوله إنه أحوال قاهرة، ولا يأتى بالتكلف والتصنع.

واعلم ان الكون مقهور بالأسماء الإلهية تحت قبضة القدرة، فلا يخرج عما أرد الحق سبحانه منه، وإلا لكانت الإرادة الإلهية غير فاعلة فيه، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾.

فكل ذرة لا تخرج عما يراد منها فى ملكه سبحانه، ولذلك قال ﷺ: ((**كل ميسر لما خلق له**))، وقال ﷺ لأبى هريرة ﷺ :((**جف القلم بما أنت لاقٍ**)).

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴿١٩﴾ ﴾

وبهذه الآية احتج أبو حيان التوحيدى فى كتاب الإمتاع والمؤانسة على أنه سبحانه شئ.

وفى الحقيقة أنه سبحانه ليس شيئا كما قال التوحيدى وادعى ذلك فإن الشئ هو الذى شاءت به القدرة من الحدث، وحاشاه سبحانه أن يكون شيئاً كالأشياء المحدثة.

واعلم أنه سبحانه قد أشير إليه بأنه شئ لغياب اللغة البشرية الدالة عليه.

فإن اللغة لا تدل عليه سبحانه إلا من باب العجز فقط، فإنه هو الذى علم الأسماء كلها، فاللغة تشير من باب العجز فقط لا من باب الشمول والتفصيل فافهم.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴿٢٥﴾ ﴾

هؤلاء هم أهل الحجاب، قد سقطوا من نظر الله عز وجل، فمنعهم

من أن يتحرروا من ظلماتهم وأوجد لهم ما يصدهم من الأكنة الحجب قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

فمهما اجتهدوا فهم لا ينظرون إلى الحقائق إلا من زاوية النقص فيرونه ﷺ مجنوناً أو كاهنا أو ساحراً، ويرون النقص في كلام الله تعالى، فلا يمس أفئدتهم فيخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴿٢٥﴾ ﴾

لاستحواذ صفة البهيمية عليهم، قال سبحانه ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾.

﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وذلك لانحراف طينتهم ووقوعها في المهانة، قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ومن أهل هذه الصفة الرجل الذي دعا عليه رسول الله ﷺ ان لا تقبله الأرض وذلك أنه آمن ثم ارتد ثم آمن ثم ارتد فقال: ((**يا أرض لا تقبليه**)) فدفنوه فلفظته الأرض، فهذه صفة الذين لو ردوا لعادوا.

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وهم الدهريون ويمثلهم الشيوعيون في عصرنا هذا، وكذلك يمثلهم أصحاب مذهب دارون وهم أصحاب مذهب النشوء والارتقاء.

وهؤلاء نظروا على أن الفعل في الوجود للدهر، وقالوا لو كان هناك إله لرأيناه وكلمناه، ولكن الفعل للطبيعة، وذلك لإنكارهم للعالم الغيبي، فلا يؤمنون إلا بما تراه العين الباصرة فقط.

فلا يؤمن مثل هؤلاء إلا بعالم الشهادة فقط، فينكرون وجود

الملائكة والجن وعالم الروح والجنة والنار.

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذا خطاب للمبصرين وأهل المحاسبة، الذين يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول: يا دنيا غرى غيرى طلقتك ثلاثاً طلقتك ثلاثاً طلقتك ثلاثاً.

وقيل لنبى الله نوح عليه السلام وهو فى النزع: كيف رأيت الدنيا ؟ فقال: كالذى دخل من باب وخرج من باب.

وكان الحسن البصرى ﷺ يقول: لقد رأيت أربعين رجلاً من الصحابة لو رأو أعبدكم لقالوا لا خلاق لكم.

واعلم أن نفس العارف تهرب من التكاليف الدنيوية، فإن حب العارف فى طاعة الله وقيام الليل، فإذا أصبح الصباح ضجت نفسه من مطالب الخلق من بيع وشراء وعد أموال وبحث عن رزق ومنازعة الخلق له، وكل هذا ليس طريقه فافهم.

فإن هذا اللهو ليس هو من شغله، فإن العارف يبكى وقته، إذا ضاع هباءً منثوراً فيما لا يعنيه، واعلم أن كل شغل عن الله عز وجل ضاع من وقت العارف حتى ولو كان فى البحث عن قوته، فهو لهو ومضاعة وقت ويتندم العارف على ضياعه وانفاقه من مجهوده.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

تسلية له ﷺ لكون حزنه ﷺ يعز على الحضرة الإلهية.

فإنه ﷺ كان عظيم الرقة، زائد الحنان، فقيل له ﷺ: لا تفرز حنانك

ورقتك لمن لا يستحق.

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

أى هم متحققون من صدقك، ولكن يستكثرون عليك فضل الله، وذلك لامتلاء ذواتهم بالجحود والكنود، فإن أمثال أبى لهب لم يكن لينظر إليه ﷺ إلا فى صورة يتيم أبى طالب، وكان يرفض أن ينظر إليه ﷺ بالصورة الكمالية على أنه رسول الله ﷺ، وهو من باب الجحود والكنود، فأمثال هؤلاء لا يستحقون أن يحزن عليهم سينا محمد ﷺ ويعطيهم الكثير من حنانه ورقته الزائدة، وذلك لتضعضع الطينة فيهم وتراذل الذوات.

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

أى لا تتشغل بمقاومة القدرة فيهم، فإنك لن تستطيع رد إعراضهم الذى كتبه الله عليهم منذ الأزل.

واعلم أيدك الله أن العارفين لما تحققوا أن الأسلم عدم مقاومة القهر الإلهى، لعجزهم عن هذا، سلموا الأمر لله عز وجل، وهو مما لاشك فيه مقام الكمل من أهل العرفان.

فإن أهل الاطلاع اللوحى تحققوا من عجزهم عن رد القدر الإلهى، وعلموا أنه لا مبدل لكلمات الله ولا راد لقضائه، ولم يجدوا أسلم من التفويض والتسليم للأحكام الإلهية، يقول سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ

أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

فخاف أهل المعرفة أن يقعوا فى الجهل من سؤالهم حضرة الله مما ليس لهم به علم.

فتقربوا بأساليب ترضى حضرة الحق سبحانه كالدعاء وطلب المغفرة، ثم إن الحضرة مخيرة فى القبول أو الرفض، كما قال ﷺ :

((**لا يرد القضاء إلا الدعاء**)).

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ ﴾

وهم الذين أسمعتهم الحضرة الإلهية منذ ألست بربكم، أسمعتهم حقيقة الخطاب الإلهى والمراد منه.

وأما المصدودون والمردودون عن باب الله فتثقلت آذانهم عن سماع حقيقة الخطاب ومغزاه فقيل لهم: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾.

ولذلك لما تحقق أصحاب رسول الله ﷺ من لذة السماع قالوا له :

((**والله لا نقول لك كما قال أصحاب موسى بن عمران له سمعنا وعصينا ولكن نقول سمعنا وأطعنا**)).

فهؤلاء حقاً هم أقطاب السماع الإلهى، الذين وقفوا على البساط فتلذذوا بسماع الحقائق صافية من العين، ثم تحققوا مغزاها فنفذوه، فرضى الله تعالى عنهم ورضوا عنه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أى قد يرد الحق سبحانه وتعالى المعرض عنه والمذنب بالبلاء والتضييق عليه لكى يرجع إليه.

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

أى احذروا يا أولى الألباب قسوة القلب، فإنها تمنعكم من التضرع إلينا وتصدكم عن رقة القلب.

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

أى لما تحكمت القسوة من قلوبهم أغدقنا عليهم كل يفرح قلوبهم وفتحنا عليهم نوافذ الخيرات، ولكن كل هذا من باب الاستدراج ومن باب، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ هذا ليعلم العاقل فائدة تذكر أوامر الحق سبحانه وتعالى فيه من أمر ونهى، وأنه متى نسى الأمر والنهى فقد حدثت له القسوة القلبية الصارفة له عن باب الله عز وجل.

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ ﴿٥٠﴾ ﴾

أى تمسك يا محمد بعبوديتى الخالصة، وتخلَّ عن حولك وقوتك وعلمك ومعجزاتك، هنالك تكون عبدى حقاً، وتكون الإنسان الكامل، الذى تدور حوله أفلاك الوجود.

واعلم أيدك الحق سبحانه أنه ﷺ خير من كان عبداً صمدانياً فردانياً محضاً لربه عز وجل، وهو أكمل من قام فى مقام العبودية الخالص، حيث نال منه ما لم ينل أحد منه مثله، حتى قال الشيخ الأكبر فى الفتوحات: وقد نال منه أبو يزيد مثل رأس النملة ونلت أنا منه بحمد

الله شعرة كاملة.

واعلم أن هذه المنفيات التى طولب ﷺ من قبل حضرة ربه بأن يتخلى عنها، كلها أتت إليه منقادة خاضعة فزهدها وخصصها عن نفسه، فإنه ﷺ سيد المطلعين على خزائن الله، ولكنه لم يكن يريد خزائن الله بل كان يريد الله نفسه، كانت إذا جاءته الأموال والدراهم بالليل لا يبات حتى يفرقها، ويظل الأشهر الطوال ولا يوقد فى بيته نار، وأحيانا يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع.

وأما علم الغيب فهو ﷺ سيد المطلعين والكاشفين على الوجود وإمام الحائمين بروحه فى طرقات العالم العلوى والسفلى، ولكنه عندما سئل عن سر الروح رفض أن يبوح به برغم علمه به، انظر الى شدة تأدبه ﷺ مع حضرة ربه، وأما دخوله ﷺ فى الملكية فقد خيره فى ذلك جبريل فاختار العبودية، ونام على الحصير ﷺ حتى أثرت فى جنبه وقال: ((أجوع يوما وأشبع يوما)).

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى لا تطرد عن بابك أهل المعرفة من أصحابك، الذين يريدون التعرف علينا، وممن اشتغلوا بنا وبذكرنا فى الغداة والعشى يريدون وجهنا.

وهو إلفاتٌ ظريف له ﷺ بشأن هؤلاء السادة الأماجد وتنويه بشأنهم عند الله عز وجل.

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴿٥٤﴾ ﴾

من أهل التخليط والتلوين والخطاب لهم، وهم محملون بذلك

التخليط، وقصدوك لجل حطه عنهم فقل لهم :

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾

أى لا خوف عليكم من ذلك التخليط فإن رحمة الله قابلة لكل شئ، لكون رحمته وسعت كل شئ، ولا شئ يسعها .

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾

أى صمنها للمخلوقات على الشمول، فإن من شئ إلا وهو داخل، فى رحمته سبحانه العامة، التى وسعت الأشياء، ولا يسعها شئ فإن الكافر كالمؤمن هو ممن دخل ضمن الرحمة العامة الإلهية، وإلا لما رزقه الله فى الدنيا يقول سيدنا محمد ﷺ: ((**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى منها كافراً شربة ماء**)) .

واعلم أن الحدث لا ينغبى له أن يلزم الحق ــ المحُدث ــ بشئ فى حقه، وإنما كتب الحق سبحانه الرحمة العامة عليه لأجل استمرار الحياة الوجودية الخاصة بالحدث فافهم .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾

الكلية والتى لا يشارك الحق سبحانه فيها مخلوق، فإن الحدث كالأنبياء لا يشتركون مع الحق سبحانه فى معرفة الغيب الكلى الإحاطى سوى الجزئى منه ولهذا قال :

﴿ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

أى تلك المفاتيح الغيبية الكلية، فإنها من شؤون الغيرة الإلهية، والتى أبت الربوبية أن يتسلق أسوارها أحد .

﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا

حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

وهو من شؤون العلم الإلهى الإحاطى بما خلق وبرأ، فكيف لا يعرف تحركه وتنقله فى أطواره؟ ويقول الشبلى ﷺ ــ وكان ممن حظى بالخلافة عن الحق سبحانه ــ والله لو دبت نملة سوداء فى ليلة ظلماء على صخرة دهماء ولم أطلع على ذلك لقلت إنه ممكور بى .

وهو من صفات المستخلفين عن الله عز وجل، فإن العلم بالحدث ليس هو من العلم المكنون التى تضن به الغيرة على الحدث، سوى ما يخصها من شؤون الإلوهية وحيطتها الأقدسية الخاصة بها، وإلا لو قلنا: إن كل ما يعلمه الحق ــ المحُدث ــ يعلمه الحدث لفسدت عزة الربوبية، وانهارت، وإلا فإن الحق حقٌ والحدثُ حدث .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴿٦١﴾ ﴾

أى تحكم قهره فى الكون، فلا يخرج شئ عما أراده من الحدث، فالكون كله مقهور بقدرته، منقاد لإرادته، يقول سبحانه:﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ وقال ﷺ لمسيلمة الكذاب لما أراد أن يخرج عن طوره: ((**اخسأ فلن تعدو قدرك**)).

ويقول ﷺ : ((**كل ميسر لما خلق له**)).

فذرات العدم تعلم فى العلم الباطن المراد منها تماماً وتنفذه كما طلبَ منها .

والمطلع على اللوح يعلم تحققاً بوقوعه كما ورد به العلم اللوحى، فالأنبياء أخبروا والعلم الإلهى صدق ما أخبروا به بتحقيق القدرة لذلك الخبر، وبذلك يتحقق سلطان قهره عز وجل فى الوجود.

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

أى دخلوا على الألوهية مجردين من تلك الدعاوى العريضة، ومسقطين لحظوظهم وأهوائهم الرذيلة، فردتهم الإلوهية إلى حقيقة العلم بها، فعلموا أن لهم إلهاً حقيقياً بلا شك هم إليه راجعون، وقطعاً هم إليه مردودون.

﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ ﴿٦٨﴾ ﴾

لأنك لست منهم ولا مثلهم، بل لك رتبتك المميزة.

ومع ذلك لم تحرمهم الألوهية منه ـ ﷺ، وإنما ردتهم إليه لكن عندما يخوضوا فى حديث غيره.

ذلك لأنه من شأن الملأ الأعلى أن يأبى للعارف ولمن تعرف على حضرة الله أن يستمع إلى ذم المحجوب فى تلك الحضرة الأقدسية، فإن ذلك يؤذى الملأ الأعلى، فطولب العارف أن لا يستمع إلى كلام المحجوب بالذم فى حضرة الله تعالى.

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

اعلم أنه قد أخطأ المفسرون من أهل الظاهر كالعلامة أبى السعود رحمه الله فى تفسيرهم لهذه الآية الشريفة، حيث حملوا الآية على ظاهرها المجرد، وهو خطأ فى جنابه الأقدس ﷺ، يقول العلامة أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ بأن يشغلك

فتنسى النهى فتجالسهم ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أى بعد تذكر النهى انتهى.

ولم يتحقق مفسرو الظاهر من أنه ﷺ معصوم من النسيان الشيطانى، ولا تستطيع شياطين الأرض كلها أن تشغله عن أمر ربه فينسى النهى ثم يتذكره بعد ذلك، وحاشاه ﷺ من ذلك، فإن الأنبياء كما نص على ذلك الإمام الشعرانى ﷺ فى اليواقيت والجواهر تجوز الوسوسة فى حقهم، ولكن لا يجوز أن يعملوا بها، ولا تؤثر الوسوسة الشيطانية على ذواتهم فتخرجهم عن حقيقة العصمة الكلية الإحاطية، وقد حكى هذا القول عن الشيخ الأكبر فى الفتوحات.

ولكن كل ذلك إلفاتات إلهية له ﷺ بما لم يقع فيه ولا يجوز فى حقه، وهو نوع من الأدب الإلهى الراقى له ﷺ كما قال ذلك مخبراً عن ربه: ((**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**)). وهو أدب يجل على أمثالنا وأمثال مفسرو الظاهر فهمه لصعوبة مرقاه فافهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

احتج القشيرى فى كتابه المعراج بهذه الآية على حدوث عدة معاريج للأنبياء بجوار معراج سيدنا محمد ﷺ، وقال إن هذه الآية دالة على حدوث معراج لإبراهيم عليه السلام.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

أى لم تتدنس أرواحهم العلوية بظلمة الذوات، بل بقيت على طهرها

الأزلى، فهؤلاء هم الذين لم تكتب عليهم من روائح المعاصى ولو مرة واحدة ولم يشموا للمعصية رائحة، وهم المنزهون المقربون، كان منهم أبو يزيد ﷺ، أخبرنا العارف الكبير الشيخ صلاح الدين التجانى بزاويته بإمبابة أنه لم تكتب عليه معصية واحدة طيلة عمره ــ أى أبو يزيد ــ ﷺ.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

خطاب من حضرة العزة الإلهية، وهو من نفائس الحضرة الإلهية، التى تضيع فيها الأقدار إلا قدره سبحانه.

وكيف يكفر بها هؤلاء الأنبياء ؟

وأين هؤلاء القوم الذين وكلتهم الحضرة الإلهية ــ بدلاً من الأنبياء؟

وغاية القول أن خطاب العزة يوهم ويموه بوقع المعصوم فى غير العصمة، ومنه عدة استفادات عرفانية:

فمن ذلك : إعلاء قدر المعصوم وازدياد مقامه وارتفاعه بعد حدوث هذا الخطاب له من الجناب الأعز ومن حمى الغيرة الأقدس، فمن قيل له: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾.

فإنه لاشك فيه أنه بعد الخفض لا يأتى إلا الرفع، يقول سبحانه:

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

ومن جملة هذه الاستفادات العرفانية: بروز العزة الإلهية متفردة على الكل من مكمن الغيرة ومن مخدع الفردانية قائله: لا عزيز سواى ولا فرد غيرى فمن ينازعنى فى عزتى وفردانيتى ؟ ولهذا قال سبحانه

نازعنى واحداً منهما قذفته فى النارِ ولا أبالى))

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴿٩٠﴾ ﴾

بل هم الذين يجب أن يقتدوا به، لأنه ﷺ الأكمل، وصاحب المقام الأشمل، والجاه الأخص الأنبل، وإلا لما صلى بهم إماماً ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وإذا ضجوا يوم القيامة لجأوا إليه، فيقول: ((**أنا لها أنا لها**))، فيأتى تحت عرش ربه فيخر ساجداً، فينادى: ارفع رأسك، ليس هذا بموضع السجود، سل تعط واطلب تجاب، فصلى الله عليك وسلم يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم.

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

أى لا أطلب الأجر المادى المحسوس الملموس، بل أطلب العين فإننى فانٍ فيها، غير خارج عن دائرتها، فكيف أنظر خارجها إلى تلك الحجب المانعة، والأعطال القابعة، من الأعراض الزائلة، والزخارف المزيفة ؟

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴿٩١﴾ ﴾

فمن أنت أيها العدم الأخرس، والحدث الرث، حتى تعرفنى ؟ وإنما غاية ما هنالك أنهم فى متاهات الحيرة قائمون، وفى وادى الظنون سامدون صامتون، قد أخرستهم أنوار الربوبية، وقهرتهم حجب الغيرة الأقدسية .

أهيم بليلى ما حييت وإن أمت أو كل بليلى من يهيم بها بعدى

﴿ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى

﴿ لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ ﴾

خالية من المعارف الإلهية، قد جردت منها روائع الوحى المُزكَّى، وحلت بدلاً منها الأكاذيب العارية المظلمة الملفقة، التى لفقت بيد الحدث المخرب الكاذب، وأراد نسبتها إلى جبار السموات والأرض زوراً ولذلك قيل:

﴿ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

من حقائق الوحى الأصلى، الذى أنزله الله، وأحللتم بدلاً منه ظلمات بعضها فوق بعض، لتموهوا بها على البشر، وتخرجوهم عن دائرة الصدق المراد منهم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾

وهو علم الإنشطار المشار إليه فى قوله سبحانه:﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾.

فإنه سبحانه المخلص للأجسام بعضها من بعض، وهو الذى يشطرها، ولما تحقق نبينا محمد ﷺ بهذا العلم الانشطارى شطر الحق سبحانه وتعالى له القمر، فإنه ﷺ انفعل الكون بهمته فشطر السنن الكبرى فيه كالقمر.

وكذلك أوتى هذا السر من النبيين موسى عليه السلام فإنه فرق البحر بعصاه إلى فرقين، كلُ فرق كالطود العظيم.

ولذلك صدق من السادة العارفين ممن أوتى هذا السر عندما يقول: لو استطعت أن أنقل الجبال لاستطعت، وذلك لتحدثه بلسان هذا السر الإلهى فافهم.

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ

﴿ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴿٩٦﴾ ﴾

أى مخلص الأشياء من بعضها البعض ومحررها، فينقلها إلى الصور المتغايرة، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

فاعلم أنه سبحانه وتعالى هو المطور الحقيقى للأعراض والأجسام وناقلها فى الأعيان المتغايرة.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠١﴾ ﴾

أى المخترع الحقيقى بلا مثال يحتذيه وبلا شبه يقتديه، فهو الذى أوجد المثال المجرد، فصانع التماثيل يقلده فى ابتداعه، والمصور يضاهيه ليحاكى جماله، فإن البديع كما يطلق على المبدِع يطلق أيضا على البُدع كما نص على ذلك أئمة اللغة، فإن هذا الآدمى مبدع كخالقه يخترع الجديد وينشأ ما لم يكن من قبل، وفى الحقيقة أن المبدع الأكبر قد وكله فى هذا الابتداع فصار مبدعاً مثله.

فالبديع هو الذى لا نظير له فى اختراعه، يبدى ظرائف جماله، ويكشف عن مرهفات خصاله، وعجز الكل على أن يحاكوه فى أفعاله.

بديعة حسن لو بدا نور وجهها إلى أكمه أضحى يرى كل ذرة

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولا البصائر وهو

﴿ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وكيف يحيط عدمٌ بقديم ؟ وكيف يدرك حدثٌ مُحْدثاً ؟ وكيف بآلات العدم الركيكة تدرك الألوهية ؟ فمن أعطاه هذه الإحاطة حتى يحيط به سبحانه علماً ؟

ولكن لما عجز العدم عن درك الإحاطة به صار يتشدق فى حق الربوبية بما لا يعنيه، ويصفها بما ليس فيها من ظنون ترديه.

وكيف تدرك هذه الآلة الطينية التى ردت إلى أسفل سافلين من ليس كمثله شئ، ومن هو فوق مستوى الظنون والأوهام والعقول، سبحانه وتعالى عما يصفون.

تجليت فى الأشياء حين خلقتها فها هى ميطت عنك فيها البراقعُ
قطعت الورى من ذات حسنك قطعة ولم تكُ موصولاً و لا فصل قاطعُ
و لكنها أحكام رتبتك اقتضت ألوهية للضد فيها التجامعُ
فأنت الورى حقاً وأنت إمامنا وأنت الذى يعلو و ما هو واضعُ
و ما الخلق فى التمثال إلا كثلجة و أنت بها الماء الذى هو نابعُ
و ما الثلج فى تحقيقنا غير مائه وغيرٌ أنَّ فى حكمٍ دعته الشرائع
و لكن بذوب الثلج يرفع حكمه و يوضع حكمُ الماء و الأمرُ واقعُ
تجمعت الأضداد فى واحد البها وفيه تلاشت وهو عنهن ساطعُ
فكل بهاء فى ملاحة صورة على كلِ قدّ شابه الغصن يافعُ
و كل اسوداد فى تصافيف طُرةٍ وكل احمرار فى الطلايع ناصعُ
وكل كحيلِ الطرفِ يقتل صبه بماضٍ كسيفِ الهند حالاً مضارعُ
و كل اسمرار فى القوائم كالقنا عليه من الشعر الرسيل شرائعُ
و كل مليح جلَّ أو دقَ حسنه وكل جميل بالمحاسن بارعُ
وكل لطيفٍ جلَّ أو دقَّ حسنه وكل جليل وهو باللطف صادعُ
محاسن من أنشأ ذلك كله فوحد ولا تشرك به فهو واسعُ

يُكمِّلُ نقصانَ القبيح جمالـــه فما ثم نقصان ولا ثم باشعُ

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

أى لابد من العداوة، فلا تدخل المعرفة قلب عارف خالٍ، إذ لابد من التمحيص والابتلاء .

فكان من الحكمة العليا أن جعل الحق سبحانه لكل عارف سواء نبـــى أو ولى عدواً من الجن والإنس، ولو شاء ربك مـــا فعلـــوه، ولكنـــه سبحانه شاء أن يفعلوه.

واعلم أن الأنبياء درجات فى عصمتهم من تلك العداوة، فمن قال إنهم كلهم معصومون من عداوة الإنس والجن فقد أخفق، وإلا فكيف نشر يحيى بن زكريا عليه السلام فى جذع الشجرة بالمنشار؟ وكيف ألقـــى إبراهيم عليه السلام فى النار؟ وكيف دخلت حلقة الترس فـــى وجـــه رسول الله ﷺ فى واقعة أحد؟ وكيف وقع البعض فى عرضه ﷺ فـــى حادثة الإفك، وكيف صلب عيسى عليه السلام؟ وكيف ابتلـــى أيـــوب عليه السلام فنادى ربه: رب أنى مسنى الشيطان بنـــصب وعـــذاب وكيف ظل السم مؤثراً فى جسد رسول الله ﷺ حتى لقى ربه، حتـــى كان يعانى أثر ذلك السم وهو فى مرض موته، فإذن العصمة الكليـــة الإحاطية ــ ما خلا عصمتهم الكاملة الكلية من الوقوع فى الذنوب ــ فإنها غير موجودة غير مقطوع بها للأنبياء من أذى الجن والإنـــس، ومن قال بذلك فقد أخفق .

ولنا كتاب كبير شامل حافل فى ابتلاءاته ﷺ.

وكان من شأن هذه الآية أنه أصابنى أذى من الجن فسمعت هاتفا يقول لى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ .

ثم إنه بعد أيام عاودنى الأذى فسمعت نفس الهاتف يكرر نفس الآية.

وأما قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فالمراد منه العصمة من القتل ومن أن تمسه يد بسوء أو تصل إليه بأذى وقتل، وإلا فإنه ﷺ لا يستطيع أن يضع يده على ألسنة الناس من الوقوع فيه ومن خلق الفتن الشيطانية وحياكتها ضده، وكذلك من صرف تأثير ذلك السم ــ الذى دسته له اليهودية فى ذراع الشاة ــ عن جسمه حتى توفى وهو يعانيه، فمن علم هذا تحقق أن هذا النوع من الابتلاء هو ثمن النبوة والولاية، وبغيره لا تكون ولاية ولا نبوة. فلا تخلط بين عصمتهم ــ أى الأنبياء صلوات الله عليهم ــ من الوقوع فى المعاصى بجميع أنواعها وبين حدوث ضرر لهم من جانب الإنس والجن، فا لأول لا يقع والثانى يقع .

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذا لمن تحرروا ظاهر وباطناً من ظلمات ذواتهم ورين الطينة، وخرجوا إلى عالم النور والصفاء الأقدس، فهؤلاء هم السادة الذين ملكوا ولم يملكهم شئ، وحكموا وتحكموا ولم يحكمهم شئ.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴿١٢٢﴾ ﴾

وحملة النور أنواع :

فمنهم: من كشف له من العرش إلى الفرش.

ومنهم: من كشف له عن حقيقة النور المحمدى الأكمل فصار يجتمع به يقظة ويسأله عما أشكل عليه.

ومنهم: من كشف له عن عالم الجلال والجبروت.

ومنهم: من كشف له عن عالم الجمال واللطف.

ومنهم: من غرق فى العين ونسى الكل.

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

ولكل درجات مما عملوا، لا تشغلهم من هو الأعلى ومن هو الأسفل ؟، ومن هو الذى سبق ومن الذى تأخر ؟، فمن اشتغل بالسباق فاته السباق، يقول سبحانه: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

هذا لأصحاب العدد ولمن شغلهم العدد، وهم بخلاف المقربين فإن العدد لا يشغلهم، فإن عمل المقربين المثقال منه بأطنان من عمل غيرهم، ولهم جنة بخلاف جنة أصحاب العدد.